أدب الطبائع في نقائض جرير والأخطل

الدكتورة فاطمة تجور*

الملخص

أدب الطباع هو أدب الملامح النفسية والصفات الإنسانية المركوزة في الــنفس البشرية.

إنه الأدب الذي يصور ما طبع عليه المرء من كرم أو بخل، من شجاعة وجرأة وإقدام، أو جبن وغدر ولؤم. يصور الحسد والشماتة والبغض، ويعرض الغباء والغرور والسفاهة والحلم، وكذلك للكذب والحمق والفجور، والعفة والوقار.

وذلك من أجل إضاءة جوانب النفس الإنسانية بلا إهانة أو تجريح، ولإثارة المرح والضحك والابتسام.

حاولت الكشف عن هذه الجوانب في نقائض جرير والأخطل.

ورأيت أن الصراع بين المثالية والواقع يحكم هذه الأشعار، وتسيطر على معانيها المناظرة والمقابلة بين هذه الأضداد. (البخل، الكرم، القوة، الضعف..).

وقد تراوح أسلوب كل من الشاعرين في إظهار هذه المعاني بين المبالغة والتضخيم، والحكاية الطريفة، والتعليق الساخر...ولكنهما تحولا - في كثير من الأحيان- عن الطرافة إلى الخوض في معان مكشوفة وألفاظ بذيئة انحرفت بهذا الشعر عن الذوق والقبول والإثارة النقية إلى ابتذال وترخص أبعدهما عن روعة الفن. وبيّن البحث أن أدب الطبائع ظاهر بقوة في موضوع الهجاء، وأنه قليل في الفخر، ونادر في الغزل.

* قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

الطبْعُ والطبيعة: الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان. والطّباع : كالطبيعة، مؤنثة، ويجمع طبع الإنسان طباعاً، وهو ماطبع عليه من طِباع الإنسان في مأكله ومشربه وسهولة أخلاقه وحُزونتها وعسرها ويسرها وشدته ورخاوته وبخله وسخائه. وطبعه الله على الأمر يطبعه طبعاً: فطره.[1]

أدب الطباع هو أدب الملامح النفسية والصفات الإنسانية المركوزة في النفس البشرية، إنه الأدب الذي يصور ماطبُع عليه الإنسان من كرم أو بخل، من شجاعة وجرأة وإقدام، أو جبن وغدر ولؤم. يصور الحسد والشماتة والبغض، ويعرض الغباء والغرور والسفاهة، والحلم، وكذلك للكذب والحُمق والفجور والعفة والوقار.

((أدب تكون الحقائق النفسية فيه كالدم نجده في كل عرق))[2] وذلك من أجل إضاءة جوانب النفس الإنسانية بلا إهانة أو تجريح، وإثارة المرح والضحك والابتسام. هذه هي المحاور الأساسية لأدب الطباع التي دارت حولها موضوعات متعددة في الشعر العربي أهمها: الهجاء والفخر.

كيف صور شعراء النقائض الأمويون في نقائضهم هذه الحقائق النفسية؟ وإلى أي مدى استطاع هؤلاء الشعراء أن يلامسوا هذه الطبائع، فيثيروا الإعجاب والاستحسان، أو الضحك والسخرية؟

الهجاء:

سأحاول الكشف عن هذه الجوانب (أدب الطبائع) في نقائض جرير والأخطل لبيان مدى التوفيق في التعبير عن هذه الطبائع لأنها تمثل مرحلة متقدمة من النضج الفني الدال على تطور المجتمع العربي زمن الأمويين. أو كما يقول د.شوقي ضيف: "إنّ

1- لسان العرب: طبع.
2- ألوان د.الأشتر: 45

الهجاء تحول تحت تأثير هذا التطور في حياة العرب إلى فن جديد، وهو فن لاشكَّ في أنّ له بذوراً قديمة، ولكنه أصبح الآن شيئاً آخر. أمَّا من حيث الغاية فقد أصبح يراد به إلى اللهو لا إلى الجد كما كان الشأن في القديم. وأمَّا من حيث الصورة فقد أخذ يختلف وجوهاً كثيرة من الاختلاف، إذ أصبح الشعراء يحترفونه احترافاً".[3]

ويرى د.ضيف فرقاً كبيراً بين الهجاء الجاهلي والهجاء الأموي في قوله: " فالشاعر الجاهلي لم يكن يهجو ليضحك جمهوراً وليقطع له أوقات فراغه، ولم يكن يهجو أمام خصومه مباشرة، ولم يكن يحترف الهجاء على هذا النحو الذي نجده في عصر بني أمية"[4] وأظن أنّ د.ضيف قد أسرف في إيجاد الفرق بين الهجاء الجاهلي والهجاء الأموي من حيث الغاية في كليهما. وأنه رأى في هجاء الشاعر الأموي القصد إلى الضحك والتسلية واللهو وإثارة الدعابة!

حقاً لم يكن الشاعر الجاهلي يهجو ليضحك جمهوراً ولتمضية وقته في تسلية مبتدعة جديدة، ولكن هل كان هجاء الشاعر الأموي هجاء باسماً لطيفاً قيل لإثارة الضحك والتسلية؟

هل كان الشاعر الأموي يعي وعياً عميقاً وظيفة شعر الهجاء في سبر أغوار النفس بلا إهانة أو تجريح أو إثارة للحفيظة؟

على الرغم من عراقة غرض الهجاء في ديوان الشعر العربي فإن النصوص الهجائية التي تعتمد على الدعابة والمرح لإثارة السخرية والتهكم قليلة في هذا الشعر. أمَّا أكثر الهجاء فهو أقرب إلى الإقذاع والسب والشتم وقذف الأعراض، إنَّه هجاء قاتم أسود لا يثير الضحك بقدر مايثير الرفض والنفور والاستغراب.

3- التطور والتجديد د.ضيف: 164

4- التطور والتجديد:164

فمن الطباع التي تناولها الشعراء مادة للهجاء والتعيير كان طبع **البخل**، وهو نقيض الكرم الذي يفخر به العربي، ويصدر عن أصالة في طبعه، ويتجسد في قيمه الأخلاقية الرفيعة، ويتبوأ مكانة رفيعة في منظومة القيم المجتمعية العربية.

والهجاء قائم على التجني في أغلب الأحيان[5]؛ لذلك نتوقع مبالغة أصحاب النقائض في رمي خصومهم بالبخل. ونسمع بالمقابل ارتفاع صوت الشاعر مفتخراً بما له من طباع الكرم والجود والأريحية. وقد يكون الأمر كما رأى د.مصطفى ناصف: "إذا ارتفع صوت الإنسان بما يدعي أنه في حوزته فقد يكون عَزاء عن ضعفه وشعوره بما لا يملك".[6]

يمكن القول إذاً: إن الجدل بين المثالية والواقع يحكم هذه الأشعار. وتسيطر على معانيها المناظرة والمقابلة بين أضداد كثيرة أهمها: البخل والكرم، القوة والضعف، الإقدام والجبن، وغيرها من الثنائيات الدالة على الطباع التي بالغ الشعراء في تضخيمها.

والمهتم بأدب الطباع كما يرى د.الأشتر "يصورها، ويحلل مظاهرها، ويغنيها بالتفصيلات الدقيقة والحركات والحوار، ويستعين على إيجاد مثيرات الضحك في الكلمة والإشارة والحركة".[7] فهل يسمح الشعر بهذه المتابعة في التفصيلات والحركات والإشارات؟ وهنا لا بدَّ لنا من الانطلاق من إشارة الدكتور الأشتر البارعة إلى أن "أدب الطباع هو أدب الملامح الإنسانية التي تُغني فيه الخطوط القليلة عن التفصيل".[8] وهو مانراه واضحاً في هذه الصورة التي أبدعها جرير للنيل من الأخطل وقبيلته:

5- مقدمة البخلاء/الحاجري:28

6- اللغة بين البلاغة والأسلوبية: 350

7- ألوان: 41

8- ألوان: 45

وَالتَّغْلَبِيُّ إذَا تَنَحْنَحَ لِلقِرى حَكَّ اسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الأمثالا [9]

ففي هذا الهجاء تكثيف عالٍ لمعنى البخل يأتي ضمن تصوير دقيق لمّاح، فقوم الأخطل إذا ما استضافوا الناس فإنهم يقومون بحركات تشير إلى بخلهم المتأصل، وتهربهم من واجب الضيافة، فالرجل التغلبي لا يزيد على التنحنح وإصدار الحركات المرتبكة والحركات الجسدية الأخرى كأن يحك مؤخرته في لمحة تعبيرية وامضة فيها سخرية شديدة لأن القصد من تصوير هذه الحركات هو تصوير الارتباك النفسي، وتجسيد إحساس التغلبي بهذا الارتباك الذي أفضى بلحظة إلى الحيرة، فهو مدعوّ إلى إكرام الضيف، وهذا ليس من طبعه، ولاقدرة له عليه، وإذاً عليه أن يبحث عن حلّ لهذه المشكلة التي حاصرته فجأة، وفي انتظار هذا الحل يأتي بحركات تجرّده من وقاره، ويتمثّل بما يحضره من الأمثال، لئلا يصمت فنكشف عجزه وارتباكه، وبذا تتكشف طبيعة البخل المتأصلة فيه.

ولك أن تتصور هذا التغلبي وهو يهرش مؤخرته دون وعي، ويقرن هذا الانشغال الجسدي بانشغال نفسي فهو يبحث عن أمر يسد به الاضطراب الذي سقط فيه أمام امتحان الكرم. ولعله كان يحرص على أن تكون هذه الأمثال معبّرة عن تبجّحه وادّعائه، وبذلك تزداد هذه المفارقة بين الواقع النفسي والواقع الاجتماعي في هذه اللحظة.

ويرصد جرير هذه المفارقة، ويصورها هذا التصوير الساخر البديع الذي تظهر فيه المزاوجة بين الحركات المادية وحركات النفس وانفعالاتها، كما يومئ هذا التصوير إلى عقل هذا البخيل، فليس حكّ المؤخرة، وتمثّل الأمثال إلا ذريعة يتذرّع بها ليجد وقتاً كافياً للتفكير في كيفية الخروج من هذه المصيبة التي دهمته. ولا تقتصر هذه

9- النقائض:89

الصورة على شخص بعينه، بل تستغرق "التغالبة" كافة. إنها صورة نمطية ساخرة لكل إنسان من هؤلاء القوم أجمعين.

وعندما تناول الأخطل هذا المعنى في هجاء جرير وقومه قال:

قَومٌ إِذا اِستَنبَحَ الأَضيافُ كَلبَهُمُ قالوا لِأُمِّهِم بولي عَلى النارِ[10]

وهو من الأبيات التي طارت شهرتها في العالم العربي[11] فهو لم يكتف بوصف قوم جرير باللؤم والدناءة وابتذال الناس، بل جعل نارهم حقيرة ضئيلة تطفئها كمية قليلة من البول، وهي سخرية بالغة[12]. ولعل أدق ما عُلِّق به على هذا البيت هو قول ابن رشيق: "قد جمع ضروباً من الهجاء، فنسبهم إلى البخل بوقود النار،لئلا يهتدي بها الضيفان ثم البخل بإيقادها إلى السائرين والسابلة، ورماهم بالبخل بالحطب، وأخبر عن قلة النار وأن بولة تطفئها، وجعلها بولة عجوز، وهي أقل من بولة الشابة. ووصفهم بامتهان أمهم، وابتذالها في هذه الحال يدل على العقوق والاستخفاف، وعلى أنه لا خادم لهم وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء".[13]

ولم تقتصر براعة الأخطل على قدرته على الإيحاء بكل هذه الدلالات التي بيّنها ابن رشيق، بل ظهرت هذه البراعة أيضاً في التركيز والاقتصاد اللغوي، فقد رسم بكلمات قليلة هذا المشهد البدوي الفسيح، وملأه بالبشر والحيوان والنار، وأشاع الحركات والأصوات في أرجائه كلّها. وزاد على ذلك كله، فصوّر احتمال ورود الضيفان عليهم كأنه كارثة دهمتهم، فهبّوا جميعهم مذعورين لتفاديها، وآية ذلك ضمير "الجماعة"، في "قالوا" وفي "أمهم"، فكأن كارثة وقعت أو كادت، فأذهلتهم عن كل شيء

10- النقائض:135

11- التطور والتجديد: 174

12- التطور والتجديد: 174

13- العمدة 853/2

سواها، فإذا هم جميعهم يقولون قولة رجل واحد:"بولي..". وللمرء أن يتخيل هذه المرأة العجوز، وقد باغتها الخطب الملم، وأخذتها الشدة، وحاصرها الطلب، فهبت على مرأى من الجميع، ترفع ثيابها لئلا تحترق، وتستحث بولها الذي قد يعاسرها...مشهد تنقلب فيه الشفقة أو الاحتقار إلى ضحك عميق ينبع من القلب: قبيلة تستنجد بأمها العجوز، فترفع هذه العجوز ثيابها، وتحاول أن ترتفع عن لهب النار قليلاً، ثم تحاول التبوّل...وقد تحلّق القوم حولها يطمئنون إلى أن الخطب المدلهم قد انقشع!!!

أليس هذا ضرباً من الرسوم الكاريكاتورية الساخرة؟ ألا يستطيع فنان كاريكاتير معاصر أن يرسم هذا المشهد المملوء بالانفعالات والمشاعر المتناقضة، فينشر على وجوهنا ابتسامة عميقة تعبّر عن ضحكة مجلجلة في أعماق النفس؟ ولمَ هذا كله؟!! هل ترى كيف تشتبك العواطف والمشاعر في هذا الموقف؟! إنكار جمّ، واستخفاف يلامسه احتقار مضمر، وإشفاق أسيان، وضحك ناعم شفيف في غير إهانة واضحة، أو تجريح صريح.

وعلى الرغم ممّا قلناه كلّه في هذا البيت، فإن بيت جرير – بشهادة الأخطل نفسه – قد فاقه سيرورة وشيوعاً على أفواه الناس.

ونقل عن الأخطل أنه قال: "قلت بيتاً ما أعلم أحداً قال أهجى منه، وهو: قوم إذا استنبح..(البيت) فلم يردده إلا حكماء أهل الشعر، وقال جرير: والتغلبي إذا تنحنح...(البيت) فلم يبق سفلة ولا أمثالها إلا رووه".[14]

ويُذكر أيضاً: أن جريراً قال متباهياً بعد إنشاده: "لو أن الأفاعي نهشت أستاههم ماحكّوها"[15]. وقال: "قد قلت بيتاً فيهم لو طعن أحد - منهم- في استه لم يحكّها"[16]. ولا

14- الأغاني: 318/8

15- ديوان المعاني: 171/1

16- ديوان المعاني: 170/1-171

يخلو تعليق جرير من الدلالة على اعتزازه بمقدرته التصويرية الساخرة. لكأن هذا المعنى أو هذه الصورة تحولت إلى قيد من حديد قيّد التغالبة فلم يستطيعوا منه فكاكاً.

ولشد ما أدهشني أن هذين البيتين السابقين هما أهم الأبيات التي تبادل الشاعران فيهما الهجاء بالبخل، وما تبقى من الشعر الذي تضمن هذا المعنى لم يزد على أنه إشارة عابرة لا ترقى إلى مستوى هذين البيتين كما لا ترقى إلى مستوى هذه الصفة التي اعتمدت للنيل من الخصوم. سأتجاهل الهجاء الذي ينحو منحى الشتيمة والسب والألفاظ البذيئة، وسأركز على الهجاء الذي يبرز فيه أدب الطباع. من هذه الأبيات قول جرير:

لا تفخَرَنَّ فإن الله أنزلكـــــم ياخزر تغلب دار الذل والعـــار
قومٌ إذا جَمعوا جَمعاً لحجّهم صرّوا الفلوس وحجّوا غير أبرار[17]

فهو يجمع لهم الذل والعار والعقوق، ويعبث بهم في البيت الثاني معتمداً على صورة طريفة: فتراهم يتلفتون حولهم خوفاً على النقود التي خبئت بخرقة تضمّها وتخفيها فلا تكاد تظهر، مما يدلُّ على قلة هذه النقود التي لم تحفظ بالأكياس الخاصة بالنقود في ذلك الوقت. وتدلُّ أيضاً على هوان شأنهم فهم ليسوا من السادة الكرام الذين يملكون القطع النقدية الكبيرة مثل الدنانير أو الدراهم بل يعتمدون على الأجزاء الصغيرة من القطع النقدية.

وعندما نتوقف عند طباع **الجبن والدناءة والذل والسفاهة** نجد أن كلاً من الشاعرين قد وصم بها صاحبه، وثنّى بوصم قومه أيضاً، وخاصة فيما يتعلق بالهزائم والحروب التي دارت بينهم، بعبارات بسيطة واضحة بعيدة عن التعقيد والإغراب، بل مال أسلوبهم إلى التقرير والمباشرة.

17- النقائض: 147

من هذا الهجاء قول جرير للأخطل معيراً إياه بالذل والهوان والجبن:

بكـــى دوبل لا يُرقـــئ الله دمعَـــه ألا إنما يبكـــي من الـــذل دوبل

جزِعْتَ ابنَ ذاتِ الفَلس لما تداركت من الحرب أنياب عليك وكلكل[18]

نراه يقرر جبن الأخطل ويفسر لنا أن بكاءه بسبب الذل الذي طبع عليه، ولا يكتفي بذلك بل يذهب بعيداً ليمس انتماء الأخطل الديني معيراً إياه ووالدته بأنهما من أهل الذمة الذين خُتِم على رقابهم تمييزاً لهم من الآخرين، وحريٌّ بمن كان هذا شأنه ألا يشعر شعور الأحرار والسادة.

ويقول الأخطل معيراً جريراً بهوان شأنه في إطار صورة اجتماعية دقيقة تلامس كبرياء النفس وتنال من إحساسها بالسمو، وتظهره جباناً يغلبه الجبن ويقيّده، حين يجعله راعياً هزيلاً يقوم على أمر القطيع لكنه لا يستطيع أن يزاحم أحداً، ولا يملك الجرأة على الاقتراب من الماء، بل هناك من يقذف به إلى الخلف لينتظر وينتظر لا يكاد يروي قطيعه من الحمير، أو يرد به الماء لأنه كلما أراد ذلك حُلئ عن الماء كما تُحلأ الإبل السائبة:

المانعيك الماء حتى يشربوا عِفواته ويقسّموه ســـجالا

وابن المراغة حابس أعياره قذف الغريبة ما يَذُقْنَ بلالا[19]

صورة مضحكة يصنعها الأخطل من المفارقة التي تعتمد صورة الشاعر المشهور الذي يسوق قطيعاً من الحمير إلى شريعة الماء. وفي إبرازه لنوع القطيع غمز وسخرية من مكانة هذا الشاعر الكبير الذي لا يقدّره أحد ولا يحترم مكانته

18- النقائض:66.الفلس: الطابع من الرصاص يختم به رقاب أهل الذمة.

19- النقائض:82.عفواته: أوله. السجل: الكبير من الدلاء وفيه ماء. أعياره: حميره. الغريبة: أغراب الإبل. بلال: هنا: البلة.

و"ليس من المهم أن يكون الطبع طيباً أو خبيثاً حتى يضحك إنما يمكن أن يضحك إذا كان غير اجتماعي".[20]

ويصور جرير جبن الأخطل، حين يراه ذليلاً جباناً خائر القوى، اعتراه الهذيان والاضطراب العقلي بسبب ما لاقاه من فرسان قيس الأبطال، فأضحت الأمور تختلط عليه فيظن أن كل ما يتحرك أمامه صورة جديدة من القتال الذي أصبح يعرف شدته فيرتد مذعوراً لايريد قتالاً:

حملتْ عليك حُماة قيس خيلَـــها شعثاً عوابسَ تحملُ الأبطـــالا

مازلتَ تحسبُ كل شيء بـــعدَهم خيلاً تَشـــدُّ عليكم ورجـــــالا

قال الأخيطـــــل إذ رأى راياتنا يا مارسَرْجـــــسَ لا نريد قتالا[21]

يريد جرير تصوير الهلع الذي أصيب به فأذهله عن معرفة حقائق الأمور، وخرج به إلى التوهم، فإذا هو يخيّل إليه لهلعه أن كل شيء يطارده.

إن الشخصية تكون مضحكة على قدر ماتجهل نفسها تماماً، فالمضحك لا يشعر بذاته.

وهذا المشهد من مضحك الموقف، إنه يعبث بجبنه مستهزئاً بلجوته إلى بعض معتقدات يستمد منها القوة والعون، ومن شدة الرعب اختلط عقله " فالمضحك في عيب ما أو مزية ما هو أن يصدر عن الشخصية على غير علم منها حركة لا إرادية، أو كلمة غير واعية. فكل ذهول مضحك. أشد الكلمات إضحاكاً هي الكلمات الساذجة التي تفضح عيباً".[22]

20- الضحك برجسون: 100

21- النقائض: 89

22- الضحك: 101

ويستمر جرير بهذا التصوير الذي يغوص من خلاله في نفوس التغلبيين عامة فيظهرهم لا يتمتعون بالحلم أو الرزانة في ميزان الرجال والقبائل بل من شدة سفههم وطيشهم يتغاضون عن الأعداء ويجهلون على الأصدقاء. هؤلاء هم التغلبيون في هذه اللوحة الساخرة التي تعتمد على المفارقة في إبراز العيوب المعنوية والأخلاقية، فكأن البيت الثاني تأكيد لمعنى البيت الأول في استمرار السخرية بالتركيز على المفارقة:

ولو أنّ تغلب جمّعت أحلامها يوم التفاضل لم تزن مثقالا

تلقاهم حلماء عن أعدائهم وعلى الصديق تراهم جهالا[23]

ويرى د.إحسان النص أن الهجاء الجاهلي كان يدور على الصفات المعنوية، فكأن هجاء جرير السابق امتداد للهجاء الجاهلي، يقول: "كان الهجاء الجاهلي يدور في جلّه حول الصفات المعنوية وقلما نجد الشاعر الجاهلي يلجأ إلى التعيير بالعيوب الخلقية والصفات الجسمانية، إذ إنَّ منزلة المرء في المجتمع كان مردها إلى ما يتحلى به من مناقب وسجايا حميدة ولم يكن يضره أن يكون دميم المنظر قبيح الخلقة"[24]، وهذا التعليق يصبّ في صلب أدب الطبائع الذي يقوم على هذه المواد النفسية من المناقب والسجايا الحميدة، ويقوم أيضاً على إبراز أضدادها في النفس البشرية.

ويلجأ الأخطل إلى تضخيم مساوئ قوم جرير عامة، مما يوفّر له فسحة أكبر للتندر والعبث والسخرية، "كرسام الكاريكاتير" الذي يتلاعب بشخصياته معتمداً على هذا المسلك الفني "التضخيم" الذي يمنحه القدرة على النقد العميق:

الآكلون خبيث الزاد وحدَهم والسائلون بظهر الغيب ما الخبرُ؟

صُفْرُ اللِّحى من وقود الأدخنات إذا ردّ الرفادَ وكفَّ الحالبِ القرَرُ

وأقسمَ المجدُ حقاً لا يحالفهم حتى يحالفَ بطنَ الراحة الشعر[25]

23- النقائض: 96

24- إحسان النص – حسان بن ثابت212

25- النقائض: 165. القرر: البرد.

فهو يرميهم بالهوان وعدم المشاركة في شؤون المجتمع والناس، بل هم أذلاء يتحكم فيهم الآخرون كما أنهم يغيبون عندما تحضرعلية القوم.

تنبئ هذه الصورة عن قدرة حية على ابتكار الهزل، فهو يعبث بهم، ويحركهم بخيوط مشدودة إلى كفّيه في الوقت الذي يظنون أنهم يتحركون بحرية ويتصرفون على هواهم.

"وهذا الفن هو فن مبالغة من غير شك، فرُبَّ صورة كاريكاتورية أكثر شبهاً بصاحبها من صورة فوتوغرافية". ورُبَّ صورة كاريكاتورية لا تكاد ترى فيها أثراً للمبالغة، وقد تسرف في المبالغة إلى غير حد ثم لا تحصل على صورة كاريكاتورية حقة".[26]

ومن المضحك الذي تخلقه اللغة ألا تبدو المبالغة غاية بل وسيلة[27]. وهو مايحاوله الأخطل في عدد من صوره:

ما كان في مضر إذا هي حاربت قـــومٌ أذل فوارســـاً ونصــيرا
ممن هتفـــت به لنصرك بعدمـــا غُودرت يصفر منخراك صفيــرا[28]

يريد الشاعر تصوير الذل لدى هؤلاء القوم، فينتبه إلى الحركات، الأصوات التي تصدر عنهم، فما هذا الشخير الذي يشير إليه الشاعر إلا صورة عن الحالة النفسية التي تؤكد الخَور وقلة الشأن والضعف الاجتماعي والنفسي.

إنه يهيئنا للضحك بتوجهه "إلى الحركات بدلاً من الأفعال، أي الأوضاع والكلمات التي تتجلى بها حالة نفسية ما دون غاية أو منفعة كأنها نوع من الأُكال الداخلي.

26- الضحك: 28
27- الضحك: 28
28- النقائض: 117

فالفعل شيء مراد وهو أمر شعوري، أمَّا الحركة فتفلت منه عفواً وفي الحركة نوع من الفرقعة يوقظ حساسيتنا المستعدة لأن تهدهد، ومتى اتجه انتباهنا إلى الحركة لا إلى الفعل كنا إزاء الملهاة"[29].

فالشاعر يتأنى في تصوير خصمه ويستشف هذه الحركات الخارجية التي تصدر عنه بل نراه يكشف من التقاطه لهذه الحركات في البيت الثاني عما في نفوسهم من أثقال الذل والضعف والخور.

ويتابع الأخطل في القصيدة ذاتها مصوراً جبن زعيم قيس "زفر بن الحارث" وفراره من المعركة، ولا ينسى أن يحكم على سلوكه حكماً أخلاقياً مستمداً من منظومة القيم الاجتماعية العربية:

ونجا على جرداء ذات عُلالة زُفَرٌ وكان لدى الطعان فــرورا

هرباً وغادر من نساء هوازن مثل المها خرداً أوانس حـــــورا

يهتفن أين ذوو الحميّة أين هم أم من يغار فلم يجدن غـــــيورا[30]

اتساع وتركيز على المفارقة النابعة من فروسية زفر وزعامته من جهة، ومن فراره وتخلّيه عن نساء قومه اللواتي يستغثن ويستنجدن به، ويذكّرنه بالغيرة على النساء، رمز الشرف والمروءة، ولكن الخوف جرّده من صفات الزعيم والفارس، بل من صفات الإنسان العربي الغيور على عرضه وشرفه... ولا بدَّ من التركيز على صورة النساء وهنّ يكررن طلب النجدة والاستغاثة والتذكير بالأعراض لعلّ حيّاً يسمع ولكن لا حياة لمن تنادي.

29- الضحك: 96

30- النقائض: 118. جرداء: فرس قصيرة الشعر.علالة: جري في آخر الجري. زفر: ابن الحارث الكلابي زعيم قيس. الخرد: الحييات. السنبك: مقدم الحافر.

سخرية تعتمد على المشهد المضحك. وهو ضحك كالبكاء كما يقول المتنبي[31]. ضحك تثيره هؤلاء النسوة بتلفتهن وحركاتهن المضطربة التي تريد الاستنجاد لكنها لا تجد من ينجدها. إنه يغمز ويلمز لينال من هذه الشخصية التي تظن نفسها حرة فيما تقول، في الوقت الذي يظهر لنا ألعوبة بين يدي الشاعر يعبث به من خلال كونه زعيماً قبلياً يفترض فيه حماية القبيلة، فإذا هو يفر من المعركة مخلفاً نساء هوازن وراءه!! وهذا أقدح العيب وأفظعه.

وصور جرير بني تغلب تصويراً ساخراً فجعلهم أذل من فراخ الحبارى المروّعة تتخطفها صقور قومه:

الله فضلنا وأخزى تغلــباً لن تستطيع لما قضـــى تغييرا

وكأن تغلب يوم لاقت خيلنا خِرْبانُ ذي حُسُم لقين صقورا[32]

يترك لنا الشاعر حرية التخيل، فالصورة لا تحتاج إلى تفصيل كثير، إنهم طيور صغيرة هزيلة مرتعدة تحاول اتقاء الصقور الجارحة. فهل تنجح؟ "إن الشخصية تكون مضحكة على قدر ماتجهل نفسها تماماً فالمضحك لا يشعر بذاته"[33] وهنا تبرز قدرة الشاعر في اقتناص هذه الحركات والأفعال والكلمات التي تثير الضحك.

وحين أراد جرير أن يصف الأخطل **باللؤم** كرر هذه اللفظة أربع مرات في ثلاثة أبيات قلّب فيها خصمه على السفود، وقرر أن لؤمهم ظاهر مكشوف بل إن الأرض من شدة لؤمهم ترفض موتاهم، وتلفظهم خارجها. لاحظ قسوة هذه الصورة – والأحياء ليسوا أفضل من الأموات- :

31- ديوان المتنبي ج1: 167. وهو قوله: "وماذا بمصرَ من المضحكات ولكنه ضحك كالبُكا".

32- النقائض: 125. خربان: ج خرب: وهو ذكر الحبارى. ذي حسم: واد.

33- الضحك: 23

وَالتّغْلبِيُّ لَئيمٌ، حِينَ تَجْهـــرُه وَالتّغْلبِيُّ لَئـــيمٌ حِينَ يُختَبـــرُ

أحياؤهمْ شرٌّ أحياء وألأمـــهُم وَالأرْضُ تَلفظُ مَوْتاهُمْ إذا قُـبِروا

يا خزرَ تغلبِ إنَّ اللؤمَ حالفكمْ مادامَ في ماردينَ الزيتُ يعتصر[34]

ولكن ألا ترى أن هذا الهجاء يغلب عليه طابع الجد، وتعلوه الصرامة، وأكاد أقول الكراهية!؟

ويؤكد جرير لؤمهم في القصيدة ذاتها، فيستخدم هذه اللفظة مرتين في بيت واحد. فيراهم مخلوقين من معدن اللؤم، فكل ما فيهم يصدر عن طبع لئيم، فأخلاقهم لئيمة، وأجسادهم لئيمة. ويضخم المشهد بالزعم أن ثيابهم التي يرتدونها لئيمة. ويضيف إلى ذلك كله أن الإزار الخارجي الذي يرتدونه من اللؤم أيضاً فاللؤم يشكل طبقات متعددة حول أجسادهم فتأمل هذه المبالغة!!!

تسربلوا اللؤمَ خلقاً منْ جلودهمُ ثُمّ ارتَدَوْا بثِيابِ اللّؤم وَاتّزَرُوا[35]

" وكانت صفة اللؤم تشمل جميع الصفات التي تحط من شأن الرجل فـــي المجتمـــع، تشمل البخل والخسة ودناءة النفس وضعة النسب وخبث المَنْبِت"[36].

ويستخدم الأخطل اللفظة ذاتها مرتين في بيت واحد، ولكنه يلصقها بأم جرير وأبيه:

أُمُّ لَئيمَةُ نَجلِ الفَحلِ مُقرِفَةٌ أَدَّت لِفَحلٍ لَئيمِ النَجلِ شَخّارِ[37]

مجتمع تعلو فيه قيمة النسب، يجرد خصمه من هذه القيمة بهجانة الأم فضلاً عن شخير هذا النجل اللئيم.

34- النقائض: 176

35- النقائض: 172

36- إحسان النص- حسان بن ثابت: 206

37- النقائض:139. نجل: ولد ونسل. مقرفة: هجينة لئيمة. شخار: يشخر بأنفه.

ويرى الأخطل اللؤم حليفاً لهم فهو من طبعهم يلاحقهم في الدور والساحات، فهو لا يفارقهم أبداً:

واللؤم حالف دارهم وفناءهم أبداً فليس يزول فيما يزول[38]

فتأمل ما قال: لكأنهم مخلوقون من معدن اللؤم صرفاً!! بل لكأن عدوى لؤمهم تصيب كل مايتصل بهم وكل من يتصل بهم!

ووظيفة المبالغة العبث بهم، وإضحاك الناس منهم، ولنا أن نتصور الناس يتجنبونهم للؤمهم بل يحاذرون الاقتراب من منازلهم حذراً على أنفسهم من العدوى. وعلى الرغم مما يبدو من الصرامة والجدّ في هذا الهجاء فإن براعة الشاعر في إخراج معانيه إخراجاً تصويرياً والمبالغة في ذلك قوّت صلته بالشعر عامة، وبأدب الطبائع خاصة.

وقد يجانب جريراً التوفيق الفني أحياناً، فيخرج إلى التقرير، ويغدو ما يقوله أقرب إلى السباب والشتم، كقوله:

أوَجَدْت فينا غيرَ غدر مجاشـــع ومجرّ جعثن والزبير مقالا[39]

ويكرر جرير الألفاظ ذاتها:

أنسيت ويل أبيك غدر مجاشـــع ومجرّ جعثن ليلـــة السيدان[40]

ومن الطباع التي هجا بها جرير الأخطل **الكذب** ولكنه لم يتوسع في عرض هذا الطبع بل لعله كان متعجلاً يريد إلقاء اتهامه دون تريّث، فكأنه يرد تهمة عنه في قوله مصغراً اسم صاحبه:

38- النقائض: 177. في النقائض "أبدا فلا فيما يزول يزول".
39- النقائض: 97. جعثن: أخت الفرزدق.
40- النقائض: 202. السيدان: ماء عند جبل لبني عقيل.

كذب الأخيطل لن يسامي قرمنا قرمٌ أجبٌ وغارب مجزول[41]

ويكرر في القصيدة نفسها ما يشبه هذا المعنى فيذكر اسم صاحبه مصغراً ويدور في دائرة الفكرة نفسها بلا تغيير، ولكنه يجرد التغالبة من الشهامة والغيرة على النساء:

كذب الأخيطل مالنسوة تغلب حامي الذمار ومايغار حليل[42]

ومما يلفت النظر أن الأخطل لم يستخدم هذه الصفة "الكذب" أو يرد عليها. ولعل ما اتسم به الأخطل من الوقار وكبر السن قد حالا بينه وبين كثير من المعاني التي أتيحت لجرير لأسباب كثيرة على ما يرى الأستاذ أحمد الشايب: " وماكان للأخطل أن يباري جريراً في مضمار السفاهة فهو المجلي فيه – على حسن إسلامه – فقد هاجاه من الشعراء أكثر مما اجتمع على غيره منهم، من قبله، وفي زمانه، ومن بعده، ونالوا منه، وعيروه بفقره، وهوان حسبه، وضعة والده، وقلة جوده، مما ضرّاه بالهجاء ودفعه إلى الإكثار منه، والافتتان فيه فثارت نفسه، وأخذ ينشر مخازي خصومه، فإن لم يجد اختلقها اختلاقاً، في صورة ساخرة، أو بذيئة، انتقاماً لنفسه، وتنفيساً عن كوامن غيظه، واستجابة لمركب النقص الذي أصابه"[43].

ويعلل الأستاذ الشايب سبب تفوق جرير على الأخطل بأن الأخطل كان يخشى أن يهاجم مسلماً في دولة إسلامية أو يتورط في شيء لا يلائم طبعه"[44].

ومع ذلك نرى أن هذه الإثارة والحماسة قد وظفت بين الشاعرين في التعرض للنساء بالقذف والإسفاف والتجريح والخوض في معانٍ مكشوفة من سخرية فاقعة تبالغ في إبراز ما تريده مبالغة صارخة على حد تعبير طه الحاجري في مقدمته لكتاب

41- النقائض: 183.القرم: الفحل. الأجب: المقطوع الظهر. الغارب: مقدم السنام. مجزول: مقطوع.

42- النقائض: 186.

43- تاريخ النقائض: 231

44- تاريخ النقائض: 414

البخلاء، عندما ميّز بين السخرية الفاقعة وسخرية الجاحظ التي تقوم على الذوق الرفيع المهذب والفن الخالص المتمكن[45].

وأكثر ماتجلى هذا الأمر في الفحش في القول وفي تناول أعراض الأمهات والزوجات والأخوات ونساء القبيلة بوجه عام بقدر غير قليل من الطرافة والفكاهة والسخرية اللاذعة[46].

فقد كان الشاعر الجاهلي وهو في قمة إيمانه بعصبيته القبلية يتحرى الدقة في معاركه الهجائية مع خصومه ويتحرى الصدق والإنصاف فيها ويحفظ على المرأة حرمتها وكرامتها ويتباعد مما يسيء إليها، ومن هنا تخفف -إلى حد كبير- من هذا الإقذاع والإفحاش والإسفاف[47].

ولكننا لا نعدم من يسوّغ لهؤلاء الشعراء أسلوبهم بتحليل ماتنطوي عليه نفوسهم من خصائص وطباع أهلتهم لاستخدام هذا الأسلوب.

فجرير كما يرى د.شوقي ضيف: "كان أشد عنفاً من صاحبيه الأخطل والفرزدق، فهو يشبه الطائر الجارح حين ينقض على فريسته يريد ألا يبقى فيها شيئاً. ولعل ذلك ماجعله يلجأ في أحوال كثيرة إلى هتك الحرمات والأعراض كأنه يريد أن يمزق خصمه تمزيقاً"[48]. ولم يكن الأخطل والفرزدق على هذه الصورة من العنف كما يرى د.ضيف وبسبب هذه المشاعر المتناقضة التي تنطوي عليها نفس جرير كان يعمد إلى التناول الشخصي وإلى الإكثار من السب والشتم وهتك الأعراض والحرمات.

45- مقدمة البخلاء: 56

46- في الشعر الإسلامي والأموي د.القط: 352

47- تاريخ النقائض: 44

48- التطور والتجديد: 209

يقول معيراً الأخطل ووالدته بشرب الخمر والقذارة والقباحة. معتمداً على تضخيم هذه الصفات لتشمل نساء تغلب قاطبة. راسماً لهن صوراً ساخرة هازئة:

لعنَ الإله نُسيّـــةً منْ تغلب يجعلنَ منْ قطعِ العباءِ خدوراً
منْ كلّ حــنكلة ترى جلبابها فَرْواً وَتَقْلــبُ للعَبَاءة نــيرَا
وكأنما بصقَ الجرادُ بليتــها فالوَجْهُ لا حَسَناً وَلا مَنْضُــورَا
لقي الأخيطلُ أمهُ مخمورةً قُبْحاً لِذَلِكَ شَارِباً مَخْمــــُورَا
لم يَجْرِ مُذْ خُلِقَتْ على أنْيابِها مَاءُ السِّوَاكِ ولَمْ تَمَسّ طَهُورا
لقحتْ لأشهبَ بالكناسة داجنٍ خِنْزِيرَةٌ فَتَوَالَدَا خِنْزِيـــرَا[49]

يعبث ببعض نساء تغلب من خلال التصوير المضحك الذي هو مصدر الفكاهة، فوالدته تأصلت فيها هذه الصفات فغدت كأنها طبيعة مركوزة في نفسها. ويرسم لهن صورة مضحكة وقد اخضرت أسنانهن وتضخمت بطونهن من أكل لحم الخنزير، وشرب الخمر، فإذا نحن أمام نساء تفارق صورهن صور النساء المألوفة في الشعر والمستقرة في الوجدان، ومن هذه المفارقة ينبع الضحك، والإحساس بالدعابة:
من كلّ مخضرّة الأنياب فغّرها لحم الخنانيص يجري فوقه السَكَرُ[50]

وفي الصورة سخرية نابعة من شعور عميق لاصق بطباعه ينبعث من أعماق نفسه مما جعله حاذقاً في لمح العيوب الجسمانية وغير الجسمانية يلتقطها ويبالغ في تركيزها.
"إن روح العبث وتصيد المفارقة كانت لا تفارق جريراً. فكان يبالغ في إبراز المفارقة

49- النقائض: 127.الحنكلة: العجوز الدميمة.
50- النقائض: 176. فغرها: هي من شهوة الخنازير فاغرة أبدا. الخنانيص: جراء الخنازير واحدها خنوص.

أو الضدية بينه وبين الأخطل فيستخرج منابع الفكاهة ويدعو المتلقي لمشاركته التهزؤ بصاحبه والتهكم به"[51].

كان جرير يعبث بأم الأخطل ونساء قبيلته عبثاً لاذعاً فهو يقف عند بعض النقاط ويكبرها ويظهرها في أوسع صورة لها فيثير الضحك والسخرية.

ويركّب صوراً مشوهة في الطول والعرض، وينقضّ على التغالبة من هذه النقطة التي تلامس طباعهم أو تكوينهم الاجتماعي الديني الذي يسمح لهم بشرب الخمور وأكل اللحوم المختلفة.

وقد لاحظ بلاشير تكرار جرير لهذه الموضوعات، ورأى في ذلك "نزوعاً للوصول إلى تنوعٍ كلامي أكثر من المهارة في اختراع موضوعات طريفة"[52]. وهذا التنوع الكلامي الذي لاحظه بلاشير هو الذي جعل من هذه الموضوعات مادة طريفة تثير الضحك والسخرية، وتبعث روح الدعابة والهزل والابتذال في الموقف.

وكان مذهب جرير في رسم هذه الصور الساخرة قوله: " إذا هجوت فأضحك" ومن خصائصه: العامية والابتذال. وهو ابتذال في المعاني وفي الأخلاق وفي الألفاظ[53] والابتذال جوهر الضحك[54]، وبكلمات بسيطة يرسم جرير مشهداً لعدم وفاء نساء تغلب، وشدة غلمتهن، فيصور امرأة تغلبية حزينة ثكلت بزوجها لكنها تبحث عمن تغازله فيهزأ بها جرير قائلاً:

تقول لك الثكلى المصاب حميمها أبا مالك مافي الظعائن مَغْزلُ؟[55]

51- الشعر الأموي محمد فتوح أحمد: 100

52- تاريخ الأدب العربي بلاشير.

53- الهجاء والهجاؤون: 160

54- الضحك: 33

55- النقائض: 68. مغزل: من المغازلة واللعب.

وللمرء أن يتخيل هذه المفارقة بين المألوف من أمر الثكالى وماتفعله هذه الثكلى. إنها تبحث عمّن تغازله، ونحن نظنها غارقة في أحزانها!!

ومن هذه المفارقة بين عادات المجتمع وسلوك هذه الثكلى تنبع السخرية والاستهزاء، أو قل ينبع العبث بهذه الثكلى، وتظهر روح الدعابة لأن الصور المضحكة متعلقة بالعادات الاجتماعية "ولكي نفهم الضحك يجب أن نرده إلى بيئته الطبيعية وهي المجتمع"[56].

وعلى الرغم مما في هذا الهجاء من الجد والصرامة إلا أنه استطاع أن يكون باسماً طريفاً.

الفخر:

ولم يكن الهجاء وحده مجالاً لتصوير الطبائع الإنسانية، بل كان **الفخر** أيضاً مجالاً لهذا التصوير. ونحن نعلم أن "الفخر والهجاء أهم فنون النقائض فقد غلبا على القصائد أولاً، ثم وردا فيها مختلطين ثانياً. بحيث تجد الأبيات المتجاورة جامعة بين الفنين دون فصل أو تنسيق، بل نجد البيت الواحد يجمع بين الفنين".[57]

والفخر إحدى الطبائع الإنسانية ومجالاته الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف أو بعبارة أخرى كل القيم النبيلة في المجتمع.

وهنا نحاول الكشف عن صور هذه القيم ولا نبحث عن الضحك بل كيف عبّر هؤلاء الشعراء عن هذه القيم: القوة، الكرم... على أنها صور للطبيعة الإنسانية.

يصوّر جرير الخوف الذي استبدّ بالأخطل وقومه ولاسيما النساء تصويراً مفصّلاً حيّاً، فكأنّما أوصدت أمامهن أبواب النجاة ومنافذها، فألقت الحوامل الأجنّة قبل تمام

56- الضحك: 18

57- تاريخ النقائض: 422

الحمل رعباً، وبُقرت بطون حوامل أخرى، وقُتلت أخريات هلعاً وهن يرين ماحلّ بالنساء الأخريات، فهن بين امرأة بقرت بطنها، فسقطت على الأرض لا يلتفت إليها أحد، وأخرى تولول خوفاً على نفسها وابنتها...

ومن أين تأتيها النجدة، وقد سبقت الرجالُ النساءَ إلى حتوفهم؟!

إنه وقت الحرب الذي تتكشف فيه طبائع النفوس، فتظهر على حقائقها خائرة يتملّكها الشعور بالعجز والهوان والذلّ. ويظهر جرير منتشياً وهو يروي حقده الظامئ شَربةً شربةً، ولذا عمد إلى التصوير التفصيلي، ولم يقنع بتقرير فكرة النصر والانتقام:

لقــد قتل الجحــاف أزواج نســـــوة يقود ابن خلّاس بهن وعزهــل

وقــد قذفت من حرب قيس نساؤكم بأولادها منها بقير ومُعجَـــــلُ

ومقتولة صبــراً ترى عند رجلـــــها بقيراً وأخرى ذات بنت تولول[58]

ونرى الشاعر ينظر إلى نفسه متأملاً محاولاً الابتعاد عن الجلبة والضجيج، لكنه لا ينجح كثيراً في هذا التأمل الداخلي، والانصراف إلى طبعه الإنساني. إذ سرعان مايعلو هديره بفخر شخصي وقبلي يثير التوجس في النفس، ويكشف عن إحساس فجٍ غير مصقول بعبارة د.مصطفى ناصف الشفافة، عندما رأى أن الفخر لا يلائم أذواق الناس. وليس في مقدور الكثيرين الاستماع إلى شاعر يتحدث عن نفسه بإعجاب سافر أو بطولة غير مألوفة[59].

وهذا هو حال جرير وهو يفاخر بانتمائه إلى فرسان قبيلته، ويعرض بطولتهم في يوم من الأيام المشهودة معتمداً على تصوير تقليدي في اقتحامهم أحواض الموت

58- النقائض: 67 ومابعدها

59- اللغة بين البلاغة والأسلوبية: 347

وتجاوزهم الصعاب الشديدة في أثناء القتال، لأنهم قوم فطروا على القوة والشجاعة:

وكنا إذا حَوْمَةٌ أعرضتْ نخوض إلى الموت أغمارها[60]

ويلحّ الشاعر على هذه البطولة النادرة في فرسان قومه، وينسى نفسه في هذه الدائرة، فلا نسمع صوته منفرداً وإنما يخالطه صخب عال يفقده التأمل في نتائج هذه المعركة الدامية التي أدت إلى تلون مياه دجلة العظيم بلون الدماء!!

حضضت على القوم الذين تركتهم تُعَلُّ الردينـــيات منهم وتنهـــــل

عقـــاب المنايا تستدير علـــــــيهم وشعث النواصي لجُمُهن تصلصل

فما زالت القتلى تمور دمـــــاؤها بدجلةَ حتى ماءُ دجـــــــلةَ أشكل[61]

وتتدفق سيول الفخر جارفة على لسان جرير ناسباً إلى قبيلته وفوارسها كل فعل خارق، محاولاً إثبات سجايا القوة والخصال الحميدة والرفيعة في قومه وقد يكون الحافز لدى جرير تعويضياً.

" إذا بحثنا عن بعض الظروف الي تدعو الإنسان إلى الفخر بنفسه وجدنا الفخر غالباً مايكون نوعاً من العزاء الوهمي أو البديل الخيالي لماض فقده وحاضر لا إشباع فيه"[62].

قَـــوْمي تَمِـــيمٌ هُـــمُ القَـــوْمُ الـــذينَ هُـــمُ ينفونَ تغلبَ عنْ بحبوحـــةِ الـــــدار

النّازِلـــونَ الحِمَـــى لـــمْ يُـــرْعَ قَبـــــــلَهُمُ وَالمانِعُونَ بِلا حِلـــفٍ وَلا جـــــــَارِ

ساقتكَ خيـــل مـــنَ الأشـــرافِ مُعْلِمـــــةُ حتى نزلْتَ جَحيـــشاً غَيـــرَ مُختـــارِ

60- النقائض: 46. الحومة: وسط كل شيء، ومعظم الشيء أيضاً.

61- النقائض: 68. العقاب: الراية. الصلصلة: الصوت. أشكل: فيه لونان: أي خالط الدم الماء فغير لونه.

62- اللغة بين البلاغة والأسلوبية: 349

لـــنْ تـــستطيعَ إذا ماخنْـــدفي ذخـــرت صُمَّ الجِبَالِ ولُـــجَّ المُزْبِـــدِ الجَـــارِي
تَرْمي خُزَيْمَةُ مَنْ أرْمي وَتَغْـضَبُ لـــي أبنـــاءُ مُـــرٍّ بنـــو غـــرّاءَ مذكـــارِ
إنّ الـــذينَ اجْتُبُـــوْا مَجـــداً وَمَكْرُمَـــةً تلكمْ قُرَيْشِيَ وَالأنصَارُ أنـــصَـــارِي
والحـــيُّ قـــيس بـــأعلى المجـــدِ منزلـــةً فاستكرموا منْ فـــروعٍ زنـــدها واري
قَـــوْمي فأصْـــلُهُمُ أصْـــلي، وَفَـــرْعُهُمُ فَرْعي وَعَقدُهُم عَقـــدي وَإمَـــرارِي
إنـــي امـــرؤ مـــضريٌّ فـــي أرومتهـــا لن تستطيع مـــساماتي وأخطـــاري[63]

إنه نشيد مفعم بالفخرالقبلي يتحصن الشاعر به ويقوي من عزيمته. فهذه القوة المركوزة في النفس تمد الشاعر بهذه النغمات من الإباء والمجد والعزة.

ويضرب الأخطل على خصمه سياجاً من الذل والمهانة مستعيناً بصورة الحياة الاجتماعية في البادية، بل بصورة من أبرز صورها يعرف دلالتها الصغير والكبير والمرأة والرجل، إنها صورة ورود قوم الأخطل بإبلهم شرائع الماء في الوقت الذي يرد فيه جرير وقومه بإبلهم هذه الشرائع. وعلى هذه الشرائع تظهر العزّة العربية بل الجاهلية مقابل الهوان والذل والصغارّ يردُ قوم الأخطل الماء، فيشربون صفوه، ويقسّمونه كما شاءت لهم عزّتهم، وابن الحمارة – يريد جريراً- متلفّح بذلّه وهوانه وحسرته لا يجرؤ على أن يقترب من ذلك الماء، فهو يحبس إبله عن الورود لأنه كلما هم بإيرادها حيل بينه وبين ما أراد، فانكفأ يمضغ الذل، أو بعبارة شارح الديوان الجميلة: "حبسها لأنه لا يقدر على أن يوردها، كلما أراد ذلك حُلّئ عن الماء كما تُحلّأ غرايب الإبل، وترمى عن الماء فلا ترده"[64]

63- النقائض: 142. الحمى: ماحماه قوم فلم يرعه غيرهم. الجحيش: الذي ينزل وحده للغيرة. اجتبوا: اختيروا. الإمرار: الإحكام.خزيمة بن مدركة: أبو كنانة بن أد: أبو تميم. المذكار: التي تلد الذكور.
64- النقائض: 82

ويردف الأخطل هذه الصورة البدوية العريقة بصورة بدوية أخرى مفعمة بإحساس التميّز والسمو على الأقران والأشباه، إنها صورة السيل الذي يملأ سرير الوادي وجنباته صاخباً هداراً يقتلع كل ما يصادفه في طريقه، ويحمله في لجّته المزبدة. وليس ذلك السيل سوى بكر وتغلب، ولا ذلك القذى الذي جرفه السيل في طريقه سوى جرير وقومه!! صور متلاحقة متناقضة بعضها مفعم بالقوة والزهو، وبعضها مملوء بالعجز والذل والهوان.

المانعيك الماء حتى يشربوا عِفَواته ويقسّموه سِجالا
وابنُ المراغة حابسٌ أعيارَه قَذَفَ الغريبة مايذقن بِلالا
وإذا سما للمجد فرعا وائلٍ واستجمع الوادي عليك فسالا
كنت القذى في لُجّ أكدرَ مُزبدٍ قذفَ الأتيُّ به فضل ضلالا[65]

ومايزال الأخطل يصدر عن هذا الإحساس ذاته، فكأنما خلق هو وقومه من معدن كريم نادر، وخلق أعداؤه من معدن بخس. وهو لا يجري في التعبير عن هذا الإحساس مجرى تعبيرياً واحداً، بل يخالف في مسالك التعبير، فيجنح تارة إلى التصوير، وتارة إلى التقرير، وتارة ثالثة إلى التفصيل في التصوير والتهكم والسخرية على نحو مانرى في هذه الأبيات:

لقدْ حملتْ قيسَ بن عيلانَ حربُنا على يابسِ السيساء محدوب الظهرِ
ركوبٌ على السوءات قدْ خرّمَ استه مقارعة الأعداء والنخسِ في الدبرِ
فطاروا شقاقاً فرقتين فعامرٌ تَبيعُ بَنيها بالخِصافِ وبالتَّمْرِ
وأمّا سُلَيْمٌ، فاستَغاثتْ حِذارَنا بحَرَّتِها السّوْداء والجَبَلِ الوَعْرِ
وأدرك عِلْمي في سُواءة، أنّها تقيمُ على الأوتارِ والمشرب الكدرِ

65- النقائض: 82 ومابعدها

ونقّــت بــلا شــيءٍ شُــيوخُ مُحــاربٍ وما خلتُها كانــتْ تــريشُ ولا تبــري
ضَــفادعُ فــي ظَلْمــاءِ لَيْــلٍ تجاوَبَــتْ فدلَّ عَلَــيْها صَــوتُها حيــــّة البَحْــر
شفى النفسَ قتلى من ســليمٍ وعــــامرٍ ولمْ تَــشْفِها قَتْلــى غنِــــيّ ولا جَــسْرِ
ونحــنُ رفَعْنــا عَــنْ سَــلولٍ رِماحَنــا وعَمْداً رَغِبْنا عَنْ دماء بنــي نَــصْرِ[66]

أراد أن يفخر بانتصار قومه على قيس عيلان، فدفعه الامتلاء بروح الفخر إلى التعبير بهذه الصورة الساخرة، قد شبّه المركب الصعب الذي حُمِلت قيس عيلان على ركوبه بحمار محدودب الظهر يبست عظام مِنسَجه حيث يعقد الردف من الحمار، وهو –على ماهوعليه- مايزال يركب سوءة وفضيحة، بل إن است هذا الحمار قد خرّمها النخّس في الدُّبر ومقارعة الأعداء! إنه لا يكتفي بالفخر بل يشيع فيه هذه السخرية اللاذعة التي تكاد تحرق العظم.

وانظر إلى شيوخ قبيلة محارب، إنهم ضفادع لا تكف عن النقيق بلا جدوى، بل على النقيض من ذلك، فقد جرَّ عليها هذا النقيق الويل والثبور لأنه دلّ عليها حيّة البحر، فبطشت بها شر بطش. وإذا كانت هذه حال شيوخ هذه القبيلة فكيف تكون حال أفرادها الآخرين؟

وانظر إلى هذا التفصيل الذي تخالطه السخرية المرّة التي تثير الشفقة، فقبيلة عامر بلغ الهوان بها أنها تبيع أبناءها بهذه الجِلال المصنوعة من الخوص، وبما فيها من التمر! وقبيلة "سُليم" طارت تلوذ مما هي فيه بحرّتها السوداء. وقد يسوق فخره مساقاً تقريرياً، فقد أدرك علمه – كما أدرك الناس كلّهم - أن قبيلة "سواءة" تقيم على الذل وعدم طلب الثأر, ولكنه لا يلث أن يشفع هذا التقرير بتعبير تصويري (كناية)، إنها تقيم على المشرب الكدر.ومايزال الشاعر يعظّم نفسه وقومه، فكأن نار الفخر

66- النقائض: 29 ومابعدها

المتأججة لا تطفئها إلا الدماء. بل لا تطفئها إلا دماء القبائل القوية كسليم وعامر، وأمَّا دماء القبائل الضعيفة كغني وجسر فلا تطفئ ناراً، ولا تنفع غِلّة.

وإذا كان السياق كله سياق فخر عريض، واعتداد بالقوة والعزة والمنعة، فإن خير مايتوّج هذا السياق ويلائمه هو انتهاؤه بالحِلم والعفو عند المقدرة:

ونحنُ رفَعْنا عَنْ سَلولٍ رِماحَنا وعَمْداً رَغِبْنا عَنْ دماء بني نَصْرِ

ويتميز شعر الأخطل بظاهرة تلفت النظر، هي ظاهرة سريان روح الفخر في مدحه للأمويين. ومن يقرأ مدائح هذا الشاعر في عبد الملك بن مروان يدرك أنه قد تعانقت في نفسه صورة الحكم الأموي بصورة قبيلة تغلب، فهو لايكاد يتحدث عن انتصارات هذا الحكم إلا مقرونة ببطولة تغلب[67]، ولذا ليس غريباً أن يسري روح الفخر في هذا المديح، وأن يعلو الرنين الموسيقي فيه على نحو مانرى ونسمع في هذه الأبيات:

في نَبْعَةٍ مِنْ قُرَيشٍ، يَعْصِبون بها ما إنْ يوازَى بأعْلى نَبْتِها الشّجَرُ
تعلو الهضاب وحلّوا في أرومتها أهْلُ الرّياء وأهْلُ الفخْرِ، إنْ فَخَروا
حُشْدٌ على الحَقّ، عيّافو الخنا أُنُف إذا ألمّتْ بهِمْ مَكْروهَة صبروا
شمسُ العداوة، حتى يستقادَ لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا[68]

لا يخفى مافي هذه الأبيات من تصوير الطباع، فهم أهل الشرف والفخر، رُكز في نفوسهم إحقاق الحق، والأنفة، والبعد عن الفاحشة، والصبر على الملمات، وهم أصحاب العقول الراجحة، وأهل العفو عند المقدرة.

67- انظر على التمثيل لا الحصر قصيدته: خفّ القطين.
68- النقائض: 155 ومابعدها

ولا يخفى هذا التدفق الموسيقي الرنان، وهو أليق بالفخر منه بالمديح إلا مديح المتنبي في سيف الدولة.

واقرأ قصيدته في عبد الملك:

عتبتم علينا آل عيلان كلـــكم وأي عدو لم نُبــتــهُ على عتب[69]

تجد أنه قد بدأها بهذا الفخر الصريح، وحين صار إلى المدح لم يفارقه هذا الإحساس على نحو يذكّرنا بالمتنبي.

فإذا تأملنا إشاراتهم إلى طبع **الكرم**، فسوف نرى أن المعاني التي تناولها الشاعران في نقائضهما لا ترقى إلى ما استقر في أذهاننا عن هذه السجية التي أكثر العرب من التمدح بها. فتكاد اللمحة الخاطفة والعبارة الجاهزة المتداولة أن تكون هي القالب الذي قدّم هذه الصفة وهو مايظهر في قول الأخطل:

إنّا نعجّل بالعبيط لضيفـــنا قبل العيال ونقتل الأبطـــالا[70]

إنه يقرن بين القوة والكرم، فيقرر هذه الصفات تقريراً ويبتعد عن التصوير.

ويكرر الأخطل المعنى ذاته معتمداً على الكناية، فيدّعي أنه يطعم الناس إذا ما حل بهم القحط وأخرجهم للبحث عن الطعام:

وأنّا نطعم الأضياف قِدمـــاً إذا العذراءُ أخرجها القُـتـــار[71]

وهو مافعله جرير في كناية تشير إلى كرمهم وقت الحاجة:

وإنا لنقري حين يحمد بالــقرى ولم يبقَ نِقْيٌ في سلامى ولا صُلْب[72]

69- النقائض: 97 ومابعدها

70- النقائض: 73. العبيط: مانحر من غير علة أو هرم.

71- النقائض: 128. القتار: القحط.

مع العلم أن كرم العرب يتجلى في تقديم القرى وحسن الضيافة. وهم منذ الجاهلية يلهجون بهذه المعاني.

الغزل:

"وتبدو المرأة مادة أساسية في النقائض وظفها الشعراء في موضوعي النقيضة الأساسيين "الفخر والهجاء" ولكن هذه المكانة المهمة التي تظفر بها المرأة في مقدمات النقائض تختلف اختلافاً كبيراً عن مكانتها في موضوعات الشعر الأخرى، نظراً إلى أسلوب النقائض القائم على الفحش في القول، والإقذاع في تناول أعراض الأمهات والزوجات والأخوات.

ومن يتصفح هذه النقائض يَرَ بوضوح أن صورة المرأة في مقدمة النقيضة تفارق صورتها في تضاعيفها مفارقة شديدة، ففي مقدمة النقيضة الغزلية نعثر على صورة للمرأة متوّجة بالحب، وكاشفة عن دورها البارز في الحب والحياة والشعر.[73]

ومن يتصفح هذه المقدمات الغزلية يَرَ بوضوح أيضاً قلّة هذه المقدمات قلّة تلفت النظر،ويرَ بوضوح مرة أخرى الصورة النمطية لهذه المرأة، وهي صورة مستقرّة في الوجدان الجمعي العربي قوامها الدلال، والمماطلة، وتضخم الإحساس بالذات، واللجوء إلى الحيلة بدلاً من المواجهة، وسوى ذلك من الطبائع التي تكون هذه الصورة النمطية.

يقول الأخطل:

وتعرضـــــتْ لتروعنـــــا جنـــــــية والغانيـــــاتُ يريـــــــنكَ الأهـــــــوالا

72- النقائض: 110. النقي: المخ.

73- المرأة في الشعر الأموي: 293

يمـــددنَ مـــن هفـــواتهنَّ إلـــى الـــصبا ســـبباً يـــصدنَ بـــهِ الغـــواةَ طـــوالا
وإذا وزَنْـــتَ حُلـــومَهُنَّ مـــع الـــصبّا رَجَـــحَ الـــصبّا بحُلـــومِهِنَّ فمـــالا
مـــا إن رأيـــتُ كمكـــرهنَّ، إذا جـــرى فِينـــــا، ولا كحبـــــالهنَّ حبـــــالا
المهـــديات لمـــنْ هـــوينَ مـــسبة والمحـــسناتُ لمـــنُ قلـــينَ مقـــالا
يرعينَ عهدكَ، مـــا رأينـــكَ شاهـــداً وإذا مَـــذَلْتَ يَـــصرِنَ عَنْـــكَ مِـــذالا
وإذا وعَـــدْتَكَ نـــائلاً، أخلَفنَـــهُ ووَجـــدتَ عِنْـــد عِـــداتهنَّ مِطـــالا
وإذا دعونـــكَ عمهـــنَّ، فإنـــهُ نـــسبٌ يزيـــدكَ عنـــدهنَّ خـــبالا[74]

إنه يصور نفسية الأنثى الخالدة، وطبائعها التي فطرها الله عليها، فهي تعرض للرجال بفتنتها ودلالها، وتمدّ لهم أسباباً شتى من الغواية حتى توقعهم في شباكها، وترتهن قلوبهم، وتذيقهم من عذاب الحب الجميل الأهوال، وبذلك ترضي غرورها، وتشبع إحساسها بالتميّز. وليس هذا شأن هذه المرأة الجنية وحدها، بل هو شأنهن قاطبة "والغانيات يرينك الأهوالا". ولا طاقة لهن على كبح نوازع الصبا، أو التغافل عن نداء القلوب، فما أيسر وأسرع أن تغلب عواطفُهن عقولَهن، وتميل بها!! ولكنهن يداوين ضعفهن بالمكر الشديد، والمخاتلة المخادعة، فيظهرن أمراً، ويضمرن نقيضه، فالسباب والشتيمة لمن يجببن، والقول الطيّب الحسن لمن يبغضن، فكأن عقولهن قد تواطأت مع قلوبهن حماية للقلوب وصوناً لها!

ما أصدق جريراً حين قال:

أيام يدعونني شيطان من غـــزل وكنّ يهوينني إذ كنت شيطانا

وهن مقيمات على العهد مادمت ترعى عهودهن، فإذا كرهت ما أنت فيه أو تغيّرت كرهنك وتغيّرن حتى كأن لم يكن بينك وبينهن سبب. والمماطلة وإخلاف الوعد من

74- النقائض: 70. المذل: الغرض بالشيء، الكاره له. الخبال: الفساد. لا يقلن "ياعم" إلا للشيخ.

صميم طباعهن، إنهن يبذلن الوعود، ويخلفنها، أو يماطلن في أدائها. وأرى أن نتريّث قليلاً في فهم هذه المماطلة التي ملأت أرجاء الغزل العربي القديم لأنها – في ظني- تعبير عن الصراع القائم في نفس الأنثى العفيفة بين قلبها وعقلها، وضرب من المصالحة بينهما في الوقت عينه. إنها ترضي قلبها ببذل الوعد، وترضي عقلها بإخلافه أو بالمماطلة في تنفيذه. وهن –بعد هذا وقبله- مفطورات على الميل إلى الشباب، زاهدات في الشيوخ، راغبات عنهم، فإذا نادين أحداً (ياعمّ) فاعلم أن هذا النداء على مافي ظاهره من ود دليل صريح على انصرافهن عنه، وزهدنّ فيه.

إن هذه الطباع المركوزة في نفس الأنثى وأشباهها هي التي تكون الصورة النمطية لها في النقائض، وفي معظم الغزل الأموي لا يكاد يشذُّ عن ذلك سوى غزل عمر ابن أبي ربيعة المخزومي.

ويكرر الأخطل الحديث عن بعض هذه الطباع في مقدار واضح من الشكوى، يقول:

يبرقـــــن للقـــوم حتـــى يختبلـــنهم ورأيهـــن ضعيـــف حيـــن يختبـــر
ياقاتـــــل الله وصـــل الغانيـــات إذا أيقـــنّ أنك ممـــن قد زهـــا الكبـــر
ودّعننـــي إذ حنـــى قوســـي موتّرهـــا وابيضّ بعد ســـواد اللمّـــة الـــشعر[75]

إنهن ذوات آراء أو حلوم ضعيفة، ولكنهن – على الرغم من ذلك- يعرضن للرجال بفتنتهن ودلالهن، ويمددن لهم الأسباب، ويرمين لهم الشباك حتى يوقعنهم في حبائلهن "حتى يختبلنهم". وإذاً هن لا يكتفين بمحاولة الإغواء مرة أو مرات، بل يدأبن على المحاولة حتى تقع الفريسة في المصيدة! وذلك كلّه رغبة في إشباع إحساسهن بذواتهن المتميزة. فإذا ذوى غصن الشباب الأخضر الرطب، وعمّم الشيب الرأس لم

75- النقائض: 150. يبرقن: ينظرن. يختبلن: يخدعن.

يعد للمرء من ودّهن نصيب، أفليس من حق الأخطل –وهذه حاله- أن يزفر هذه الزفرة العميقة المرّة: "يا قاتلَ الله وصل الغانيات إذا..."؟

وليس مايشكو منه جرير أقل مما شكا منه الأخطل، ولا طبائع صواحبه مختلفات عن طبائع صواحب الأخطل. يقول:

أوانـــس لـــم يعـــشن بعـــيش بـــؤس يجـــــدّدن المواعـــــد والمِطـــــالا
فقـــد أفنـــين عمـــرك كـــل يـــوم بوعـــدٍ مـــا جـــزين بـــه قـــبالا
ولـــو يَهـــوَين ذاك سقـــين عـــذباً علـــــى العِلّـــــات آونـــــة زُلالا
ولكـــن الحمـــاة حَمَـــوك عـــنه فمـــا تُـــسقى علـــى ظمـــأ بِـــلالا[76]

إنّ جريراً يستكمل الصورة الاجتماعية لهؤلاء النسوة، فهن من سراة القوم، لم يعرفن حياة البؤس، بل هنّ منعّمات مترفات، وهن في حماية فرسان أشدّاء. وهذه الصورة الاجتماعية هي صورة نمطية أيضاً للمرأة العربية في الغزل العربي القديم – إذا استثنينا الغزل بالجواري كما في بعض غزل الأعشى- ، ولعل هذه الصورة الاجتماعية تعزّز التفسير الذي قدّمته لمعنى المماطلة وإخلاف الوعد، فعقل المرأة يأبى عليها أن تعرض سمعة أهلها الأشراف للسوء، كما يأبى عليها أن تعرّض سمعتها للسوء، ولكن عاطفتها تلحّ عليها لإثبات أنوثتها المتميزة، فتلجأ إلى بذل الوعود ثم المماطلة في أدائها، وبذلك ترضي عقلها وقلبها في آن معاً. قد أفنى جرير عمره في انتظار إنجاز وعودهن، ولكنه لم ينل زمام نعل، ولا مايشبه الزمام، ولو أنجزن لروى ظمأ قلبه الولهان، ولكن أنّى له ذلك؟!

ويستكمل جرير هذه الصورة النمطية للمرأة، فيضيف إلى بذل الوعود والمماطلة طبائع أخرى رأيناها في غزل الأخطل، يقول:

76- النقائض: 192

ينظـــرن مـــن خَلَـــلِ الـــستور بـــأعينٍ نجـــلٍ يُمـــتن العاشـــقين حِـــسان
نظـــراً مخالـــسةً وهـــن صـــوائد بخـــدودهن وأحـــسـن الألـــوان
وإذا رأيـــن الـــشيب لـــم يقربنـــه والغانيـــات عـــن الكبيـــر غـــواني
يقطعـــن عنـــه كـــل حبـــل مـــودة جهلاً وهـــن إلـــى الـــشباب روانـــي[77]

يضيف جرير إلى الصورة النفسية بعض الملامح الجسدية المسكوت عنها في النصوص السابقة، فيتحدث عن العيون النجل، وعن الخدود المورّدة، وعن ألوان البشرة الجميلة. ولكنه، كالأخطل، يرسم صورة نفسية نمطية لهؤلاء النساء، فهن يرشقن بنظراتهن من خلل ستور الهوادج الشباب، وهن لا يختلسن النظر مرة واحدة، بل يدأبن ذلك، فكأنهن يمددن أسباب الغواية مرة بعد مرة، ويرمين شباكهن حتى يقع فيها أولئك العشاق "وهن صوائد". وإذاً لا مفرّ من وقوع الفريسة في حبائل هؤلاء النساء اللواتي لا يكففن عن مخالسة النظر إلى الشباب "وهن إلى الشباب رواني"، أمَّا إذا اشتعل رأس المرء شيباً، وطار غرابه، فليس له في ودّهن نصيب، وليس لهن فيه مطمع! ويكرّر جرير النغمة الحزينة نفسها، والصورة النمطية ذاتها، في مقدار واضح من الشعور بالأسى. فقد تسرّب العمر من يده كما يتسرّب الماء من فروج الأصابع، وغدا نصيبه من صواحبه السابقات كنصيب المجمون من ليلى:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

يقول:

قال الغواني ما لجهلك بعدما شاب المفارق واكتسبن قتيرا
أنكرن جهلك بعدما يعرفنـــه ولقد يكن إلى حديثك صُـــورا

فقد أفسد الزمن على جرير الحياة، وعدت عليه عواديه، فبدّله من اللمّة السوداء شيباً ناصعاً، وأفسد عليه صواحبه القديمات، فأنكرن عليه الجهل بعد الشيب، وخاطبنه

77- النقائض: 220

في ذلك "قال الغواني: مالجهلك بعدما...". ولم يجد أمامه إلا أن ينكفئ على نفسه، ويلوذ بذاته يتذكّر متحسّراً أيامه الخوالي اللواتي كانت فيه أولئك النساء يملن بأعناقهن وقلوبهن ونفوسهن إليه "ولقد يكن إلى حديثك صُورا". لم يعد أمامه إلا أن يقتات ذكريات شبابه الآفل لعلها تجبر صدع قلبه المتعب.

وبعد هذه الجولة فيما هو إنساني في النقائض لأن "الطباع تعني الإنسان"[78] رأيت أن الشاعرين كانا بعيدين عن يقين د.مصطفى ناصف حين ظن أن الشاعر العربي مازال يتأمل في طباع الإنسان حتى خُيّل إليه أن أحق هذه الطبائع بالإعجاب والاستغراب أكثرها شبهاً بالزمان. ورأى أن قمة المدح في بعض الأحيان أن يكون الإنسان صنواً للزمان وجزءاً من سورة الأيام[79]. وهذ الفلسفة كانت تليق بهذين الشاعرين لو أنهما انصرفا إلى تصوير ما يمور به المجتمع من أمور كثيرة معقدة، ولكنهما آثرا أن يضعا أمام أعينهما مايستر طباعهما ويخفي مكامن عقدهما ويداري على ضعفهما الإنساني بتشييدهما صرحاً رملياً قوامه فخر قبلي مضجر وهجاء شخصي فيه السب والشتم والإقذاع فكان شعرهما أبعد ما يكون عن إثارة البهجة النقية الصافية التي تصدر من أعماق النفس وأقرب إلى الفن الذي يرضي أذواق العامة.

وكان محمد محمد حسين قد رأى أن "النقائض بحكم الظروف التي أحاطت بها والتي دعت إلى إنشائها، شعر شخصي، محوره الفرد، لا يكاد يسمو إلى الحياة في أفقها الواسع العام، ولا يكاد يتصل بالنفس البشرية، يصورها في أطوارها المختلفة، وحالاتها المتباينة. فالشاعر يفتخر بنفسه وقومه"[80]. ولعل هذه القراءة للنقائض حاولت البحث عن صلتها بالنفس الإنسانية لتكشف عن ثرائها من هذا الجانب.

وقد أظهر البحث أن أدب الطبائع كان بارزاً في الهجاء، وكان واضحاً في الفخر، ونادراً في الغزل.

78- الضحك: 88
79- اللغة بين البلاغة والأسلوبية: 376
80- الهجاء والهجاؤون: 158

المصادر والمراجع

- الأغاني– أبو الفرج الأصفهاني – الهيئة المصرية للكتاب 1992
- ألوان – قراءة في بعض المواقف الإنسانية والحركات الأدبية – د.عبد الكريم الأشتر – دار الرضا للنشر – سورية ط1 2003
- البخلاء – الجاحظ – تح طه الحاجري – دار المعارف ط7
- التطور والتجديد في الشعر الأموي –د.شوقي ضيف– دار المعارف ط6– 1977
- تاريخ الأدب العربي–بلاشير تر. ابراهيم الكيلاني–منشورات وزارة الثقافة دمشق 1973
- تاريخ النقائض في الشعر العربي –أحمد الشايب– مكتبة النهضة المصرية ط4 2002
- حسان بن ثابت – حياته وشعره – د.إحسان النص – دار الفكر ط3 1985
- ديوان المعاني – أبو هلال العسكري – عالم الكتب
- شرح ديوان المتنبي–عبد الرحمن البرقوقي–دار الكتاب العربي – بيروت 1986
- الشعر الأموي – د.محمد فتوح أحمد – دار المعارف ط1 1991
- الضحك –هنري برجسون– تر سامي الدروبي– عبد الله الدايم – الهيئة المصرية العامة للكتاب
- العمدة لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني- تح محمد قرقزان – دار المعرفة بيروت لبنان ط1 1988
- في الشعر الإسلامي والأموي د.عبد القادر القط – دار النهضة العربية 1979
- اللغة بين البلاغة والأسلوبية – د.مصطفى ناصف – النادي الأدبي الثقافي 1989
- لسان العرب للإمام جمال الدين محمد بن مكرم- ابن منظور- دار صادر بيروت
- المرأة في الشعر الأموي- د.فاطمة تجور- اتحاد الكتاب العرب ط1 2000
- نقائض جرير والأخطل لأبي تمام- دار المشرق – بيروت 1986
- الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام- محمد محمد حسين- دار النهضة العربية بيروت 1971.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2012/5/2.